# الجنوح نحو الفردانية في ظل الحضانة الأسرية

# Defiancy towards individualism under family type foster

د/ بوزار ربيحة دينارزاد

**Dr/ Bouzar Rebiha Dinarzed**

جامعة زيان عاشور بالجلفة

**Ziane Achour University– Djelfa**

تاريخ الإرسال:2020/12/06 تاريخ القبول: 2020/12/17

**ملخص:**

تُعتبر الفِردانية واحدة من أقوى التوجهات النظرية التي شَرّعَت لحرية الفرد وأَصَرّت فزرعت مفاهيم الذاتية والاستقلالية والحرية التي تبرز خصوصية كل فرد، هذه الخصوصية التي تعكس مُجمل الصفات والسمات التي يتحلى وينفرد بها كل إنسان بوصفه عنصرا فاعلا ومؤثرا، ما يمنحه شرعية الاستقلالية بالذات ضمن كل جماعة ينتمي إليها، فبات للفرد في ظلها الحق في مواجهة أنماط السلطة أو الإكراه التي قد تُعيق هذه الحرية أو تَحُدُّ من الاستقلالية.

بالمقابل تَستقطب الفرد ذاته طبيعة المِنشَئِ في ظل الحضانة الأسرية، الحضانة التي شرَّعت لها النظريات التقليدية بوصفها الأصل ومَنشئ الوجود البيولوجي والنفسي للإنسان، ومَعقِل تعزيز القيم الإنسانية والاجتماعية وبناء اللَّبنات الأولى لكل هوية فردية .

**الكلمات المفتاحيّة:** الفردانية؛ الذاتانية؛ الحضانة الأسرية.

## Abstract:

Individualism is considered one amongst one of the strongest theoretical trends which proceeded for individual independence and insisted on it and it greets concepts of individualism and independence and freedom which stand out privacy of individual.This privacy which reflects the whole characteristics and qualities which is personal for each individual as active ingredient and influential which gives him independence ligitimacy amongst the group which he belongs to . So under it this led the individual to face the power patterns and compulsion which hinder this freedom and restraint this independancy.

Conversely it polarized the individual itself the nature of originator under family type-foster. The fostering which set up on by traditional theories by describing it as the origin of geological existence and psychiatrist for the human and stronghold and strengthen of human and social values and constructing the first building blocks for every individual identity .

**Key words:** Individuality, Subjectivity, Family custody.

**1.مقدمة:**

تنمو الفردانية وتزدهر ضمن سياقات متعددة، السياسية منها والأخلاقية والاجتماعية، وللمفهوم منظور يغلب عليه السعي إلى اِنتشال الحق تارة، والتوجه نحو الواجب أخرى، فهو مفهوم شاع في ظل بحث الإنسان عن شرعيته المستقلة التي منحتها له الطبيعة وتَأَصَّلَ بحُكمِ وُجُوده الشرعي، حيث دَعَّمَت كل الشرائع السماوية اِستقلال الذات وقَرَنَتها بالمسؤولية، أمَّا أن يَبحث الفرد عن ذاتية مستقلة في حُضن الأسرة على مستوى مجتمعاتنا العربية فهذا أمر يأخذ منحى الجدلية بين الرفض والقبول.

وأمام واقع الانفتاح وتنوع مظاهر التطور التكنولوجي شُرِّعَت للأفراد آليات للحرية والاستقلالية أضحى جيل اليوم في كنفها يعيش صراعاً نفسياً واِجتماعياً بين ما هو كائن وما يريده أن يكون، فأخذت الفردانية تصورات سلبية وأخرى اِيجابية في ذهن الشباب الذي بات المؤيد للعديد من الشعارات التي لا يفقه في كثير من الأحيان معناها ومحتواها، وأصبح يرى الأسرة عائقاً أمام طموحاته واِختياراته اِعتقاداً منه أنه من مظاهر الفردانية التحرر من كل أشكال الوصاية بما فيها الأسرة.

وأمام قيام الأسرة بوظائفها في تنشئة الفرد وحمايته ورعايته، أصبح من الصعب إيجاد التوازن الملِمّ بين تنشئة تضمن الاستقلالية المشروعة والذات المسؤولة، وبين اِمتداد هيمنة السلطة الأَبوية في ظل الرعاية الأسرية، ما يراه الجيل الصاعد كبحاً لحرياتهم وهدماً لأولوياتهم، ورحلة البحث عن الهوية العالمية اِتسعت الهوة بين الجيلين ما يُمهّد حتما للعزلة أو الصراع.

وبين بيت يَأوِيه ونَفس تَستَهويه، تأرجح البناء السيكولوجي والاجتماعي والثقافي للفرد، بين معطيات الحداثة ومؤشرات ما بعد الحداثة ضمن صيرورة التغير التي تعيشها المجتمعات في ظلّ نظام القرى العولمي حيث أصبح التفاعل الثقافي المدمج والمَنمذج بُعدا من أبعاد بناء الذات، حيث وَجد الإنسان مُتسعا خارج جدران الأسرة، فباتت حضانتها تشكل نوعا من الإكراه الذي باتت نفسه تنازع التحرر منه، ما يدفعنا للتساؤل: أتحت وطأة ذوبان الحدود الفاصلة بين الثقافات والهويات، فَقَدَ الفرد آليات العيش ضمن جماعته الأولى "الأسرة"؟

ضمن هذه المعطيات بات من الضروري أن نتوجه بالإشكال نحو تدارس مظاهر هذه الفردانية على مستوى الأسرة العربية عموما والجزائرية خاصة، والبحث في لَبِنَة التوازن الذي يحقق للفرد السكن إلى النفس ما يساعده على فهم الذات وتدبر مساعيها في رحلة البناء ونمو الشخصية دون هدم الرواسخ المتينة التي طالما وفَّرَتها الأسرة في ظل حضانتها للفرد.

**2. المنظور اللغوي والاصطلاحي للفرد والفردانية:**

تعني كلمة **فَرْدٌ** : الوتر، والجمع أَفْرَاد وفُرَادَى، والفَردُ نصف الزوج ولا نظير له، وتأتي كلمة تَفَرَّدَ بمعنى اِنعزل

وتميَّز عن غيره. والفَرَدُ بالفتح والضم منقطع القرين لا مثيل لجودته[1]، فالفرد إذًا تعني الاختلاف والتميز. والفردانية مصدر صناعيّ من فَرْد.

أما اصطلاحا **Individual** فتعني إنسان أحادي منفرد، ويحوي هذا المفهوم معنى آخر هو الكلية التي لا يمكن تجزئتها إلى مكونات أصغر. فمصطلح الفرد باللاتينية **Individum** مثل مصطلح الذرة **Atom** الذي يعني عدم القابلية للتجزئة[2].

والفرد في علم النفس مُرادف للشخص الطبيعي من جهة ما هو متميز عن الآخرين بهويته ووحدته، أو من جهة ما هو ذو صفات خاصة مختلفة عن الصفات المشتركة بينه وبين أبناء جنسه. والفرد في علم الاجتماع هو وحدة من الوحدات التي يتألف منها المجتمع كالمواطن في الدولة.

أما **الفردية** فهي ما يتصف به فرد عن آخر من الصفات الجسمية والمعنوية كبنيته ومزاجه وذوقه وأفكاره، ويتجلى الفرق بين الفرد والفردية من حيث أن الأول هو جزء أحادي، أما الفردية فهي سمات خاصة بالفرد لا تتكرر لدى غيره، فالفرد إذن حامل للفردية والإنسان فرد وفردية معا، وتظهر الفردية لدى الكائن الفرد من خلال ممارسة الحرية وحين يدرك قواه الكامنة ويعمل على تنميتها.

فالفردانية هي التوجه الخلقي أو الفلسفة السياسية والاجتماعية التي تشدد على فكرة الاستقلالية وإعتماد الفرد على نفسه في إتخاذ قراراته، لذلك يدعو الفردانيون إلى تنفيذ الفرد لأهدافه ورغباته كهدف أسمى يجب على السلطة الدفاع عنه وحمايته كأساس لشرعيتها[3].

### 3. بين الفردانية والذاتية:

يَرى **الحبابي محمد عزيز** في كتابه "**الشَخصانية الإسلامية**"، أن مفهوم الذات هو لفظ مشترك بين الكائن البشري والكائنات غير البشرية من حيوان و جماد، إذ غالبا ما تُعَبِّر كلمة "ذَات" عن علاقة أو صفة تختص بها الأشياء. غير أنه صار من المتعارف عليه في الفكر الفلسفي إطلاق مفهوم الذات لتدل على الأنا وهي أقرب للروح الشخصية.

فالذاتية هي كل نزعة تهدف إلى إعطاء الذات أولوية على الموضوع، وهي بهذا المعنى تتطابق مع الاتجاهات المثالية في الفلسفة الغربية التي ترجع كل مظاهر النشاط الإنساني إلى الذات على عكس الحضارات الشرقية التي تُمحَى فيها الذات الفردية وتتوحد في الذات الإلهية. فالذات تُعَدّ أساس الفكر الغربي بدءً من سقراط صاحب شعار "**اِعرف نفسَكَ بنفسك**" .

وعليه فالذاتية هي النَّقيض المباشر للموضوعية، كما أن الفردية نقيض للنزعة الشمولية والجماعية، ومنه فالذاتية تُعَدُّ الأساس الفلسفي للفردانية، كما أن الموضوعية هي الأساس الفلسفي للنزعة العلمية.

وتُعد الفردانية مذهبُ من يرى أن الفرد أساسُ كل حقيقة وجودية، أو مذهب من يفسر الظواهر الاجتماعية والتاريخية بالفاعلية الفردية، أو مذهب من يرى أن غاية المجتمع هي رعاية مصلحة الفرد، والسماح له بتدبير شؤونه بنفسه.

وتظهر الذاتية لأول مرة لدى السوفسطائيين مرورا بفلاسفة عصر النهضة، وتبدأ بالوضوح والتميز لدى **ديكارت** و**بيركلي** و**هيُوم** و **فيخته** وصولا إلى **كير كِجارد** و**نيتشه** وكل الفلاسفة الوجوديين، وتتَّسِعُ لتضم الفلسفة البراغماتية ومعظم الفلاسفة الغربيين.

من هذا نجد أن الفردانية مُركب مجموع مفاهيم مرتبطة فيما بينها مثل: الاستقلالية، والحرية، والحقوق، والمساواة، والعدالة، والهوية التي تؤلف مجتمعة مفهوم الفردية كما عرَّفتها المجتمعات الحديثة، هذا عَدَا أن الفردانية لها خصائص أخلاقية نفسية وأخلاقية سياسية في الوقت نفسه، كمفهوم أخلاقي نفسي تتبنى الفردانية فكرة أن على الفرد أن يفكر ويصدر أحكاما بصورة مستقلة وذلك من خلال سيادة العقل، ولذلك هذا المفهوم للفردانية له اِرتباط وثيق بمفهوم الحكم الذاتي والذاتية. وكمفهوم سياسي أخلاقي فإن النزعة الفردانية تؤكد وتؤيد سيادة الحقوق الفردية – حق الحياة، حق الحرية، وحق الملكية– ومن ثم فإن للفرد الحق في اِختيار وتحديد مستقبله الاقتصادي وتحديد القيم الأخلاقية بشكل حر وبمعزل عن أي ضغوطات خارجية.

## 4. محاور في فهم الفردانية:

الحقيقة أن مفهوم الفردانية مفهوم عتيق، وجد له جذورا مذ حاول الأفراد التخلص من قمع الاضطهاد الذي طالما مارسته السلطويات على الإنسان على مختلف العصور، وفي محاولة لهذا الأخير لتحدي الجهات الحاكمة التي شكلت معقل السلطة والإكراه، عمل على خلق منظومة جديدة تُعَبّر عن إرادة الإنسان الواعية وحقه المشروع في التعبير عن أفكاره ما يتيح له كينونة مستقلة وحرة، إلا أنه يتوجب علينا أن نتيقن أن مفهوم الفردانية القديم ليس تماما هو ما تعنيه الفردانية الحديثة من منطلق اِمتزاج الأولى بخلق قوة تُتيح التحرر من قيود السلطة تارة والدِّين أخرى في حين ترتبط الحديثة منها بمفاهيم أيديولوجية على اِعتبار أنها أنساق أفكار وقيم متبعة في وسط اجتماعي معطى كما ذهب إليه **لويس دومون**، وإثر هذا شكَّلت الفردانية الحديثة موضوعا للعديد من العلوم والتخصصات كالفلسفة والسياسة وعلم النفس والاجتماع، واِتخذت لها ضمن كل تخصص مفهوم، إلا أن هذه المفاهيم لا تلبث أن تلتقي كلها في دعم فكرة واحدة وأصيلة "اِستقلالية الفرد بأفكاره وصفاته وسماته ما يدعم حقه في تقرير مصيره ودحض كل سلطة يراها تهدد وجوده أيًّا كانت هذه السلطة". ما يدفعنا للتساؤل عن طبيعة هذه الحرية اللامحدودة ومظاهرها، ما جعل للفردانية أنصاراً مؤيدين وآخرين مخالفين لها لاسيما من منطلق مفاهيمية السلطة المدحوضة – والتي ضمن هذا البحث تشكل أسرة اليوم

شكلا من أشكالها –، ما يؤدي بنا للتساؤل مرة أخرى عن طبيعة علاقة الفرد بالمجتمع والجماعة التي ينتمي إليها ويعيش معها وفي ظلها.

ويبدأ **لويس دومونت Louis Dumont** بحثه في تاريخ الفردانية من منطلق الحديث عن الإنسان والمجتمع ، فحيث الفرد هو القيمة العليا ويقصد الفردانية، في الحالة المقابلة توجد القيمة في المجتمع بوصفها كُلاً ويتحدث عن الفيضية كما أسماها، ويتساءل عن كيفية بروز الفردانية ضمن نمط عام من المجتمعات الفيضية، بوصفه نمطا جديدا يُناقض بصورة أساسية المفهوم المشترك[4] ؟

يَجد **لويس دومونت** في مفهوم الزهد الذي ظهر لدى المجتمع الهندي مظهرا من مظاهر الفردانية، حيث تمكن هذا الزاهد من الَتّنصل عن المجتمع الذي يعيش فيه على الرغم من تشبث هذا الأخير بقانون اِنصهار الفرد في الجماعة، وعليه فَفِكرُ الزاهد الهندي يشبه فكر الفرداني الحديث الذي يكتفي بنفسه ولا ينشغل إلا بها، إلا أن الفرق الجوهري يكمن فيما يسميه **دومون** "**فردا خارج العالم**" بالمقابل نجد الفرد الحديث "**فردا داخل العالم**"، فالأول مستقل عن العالم فيما أن الثاني عضو فاعل فيه، الأول تحرر لأنه ترك العالم الاجتماعي في سعي منه للتطور الروحي الفردي، في حين يسعى الثاني إلى التحرر في خضم العالم الاجتماعي وهو المفهوم الذي اتخذته الفردانية لدى الغرب.

ثم يُحدد مفهوم الفردانية ضمن المنهاج المسيحي من حيث كونها تنظر إلى الإنسان فرداً في علاقته مع الله، والذي أكد استقلالية الحياة الروحية للفرد ما نجم عنه الاعتراف بالقيمة المطلقة لكل كائن بشري باعتباره صورة الله الذي يجسد فيه غايته والذي لا يمكن أن يُعَامَلَ كمجرد آلة للجماعة السياسية. ولكن التغير الأيديولوجي الذي تطور بمُطالبة البابا باقتران الملك الديني بالملك السياسي، حيث زعم الإلهي الملك على العالم بواسطة الكنيسة والكنيسة تصير دنيوية بمطالبتهم بسلطة ثنائية ما أعطى للموضوع بعده السياسي، هذا المفهوم الذي يرى **دومون** أنه اِختفى تدريجيا مع **كالفن** – وقبله **مارتن لوثر** – ومعهما اِنقضى مفهوم الكنيسة التي تضم الدولة بوصفها مؤسسة فيضية.

ثم يتأصل مفهوم الفردانية بظهور فكرة الحق الطبيعي والتي وإن كانت قد وجدت جذورها لدى القديس **توما** إلا أنها وجدت في صيغتها الحديثة آليات تعالج الأفراد لا الكائنات الاجتماعية، بشر كل واحد منهم يكتفي بذاته بوصفه مؤتمنا على العقل، وينتج عن ذلك أنه يتوجب على رجال القانون في المِقام الأول فصل المبادئ الأصولية في تكوين الدولة أو المجتمع من الخصائص و الصفات الملازمة للإنسان بوصفه كائنا مستقلا بمعزل عن كل رابطة اِجتماعية أو سياسية، على اِعتبار أن الحالة الطبيعية الأولى منطقيا هي حالة الإنسان الأولى التي يفترض فيها أن البشر قد عاشوا قبل تأسيس المجتمع والدولة.

وعلى الرغم من أن الأديان السماوية قد رسمت معالم الفردية إلا أنَّها ظلت غامضة ضمنية نتيجة تطويقها وحسرها لأنها لا تخدم مصالح بعض القوى الاجتماعية، وعليه كان لزاما أن ننتظر عصر النهضة التي كانت من أهم سماته بروز الفردية والذي تَمَظهَرَ في صورة تحرر الفرد من قيود الكنيسة وشغفه بمفاهيم الحرية ودعمه لإرادة الفرد المستقلة والمتميزة في التعبير والاختيار.

ومنذ بداية عصر النهضة يبدأ التمرد عن النزعة الجمعية وتأكيد الفردية، وقد ظهر هذا جليا لدى أنصار النزعة الإنسانية، وكانت إيطاليا أول من أكد إستقلال الذات وتميزها وتفردها، ثم النّقلة التي عبَّر عنها الفيلسوف الفرنسي **رينيه ديكارت** "أنا أفكر إذا أنا موجود" والتي تعتبر انعكاساً صريحاً للفردانية ، فنقطة البدء بالنسبة للكل هي وجوده هو وليست وجود غيره من الأفراد أو وجود المجتمع .

ثم ظهرت الليبرالية لتتبنى الفردانية في القرن الثامن عشر، بل وباتت تطبيقا عمليا لها في المجال السياسي والاقتصادي، ولقد تأكدت ليبرالية الفكر الرأسمالي من خلال كتابات **آدم سميث** و**جيرمي بنتام** و**جيمس ميل** و**جون ستيوارت ميل**، والذين كانوا يرون أن إطلاق حرية الفرد في جوانبها المختلفة من تعاقد وعمل تجاري وتعبير عن الرأي هو ضمان لتحقيق الخير الأقصى لكل فرد وبالتالي للمجموع، ومن ثم فقد إستعاروا ذلك الشعار الذي إستخدمه الاقتصاديون من قبل والقائل : "**دعه يعمل، دعه يمر Laisser faire–laiss passer**"، لتظهر البراغماتية و قبلها الوجودية كامتداد للمذهب الفرداني، من منطلق أن الفرد هو بداية الوجود.

ولابد وأن نُنَوِّه ضمن هذا التوجه على ضرورة الفصل بين مفاهيمية الفردانية والفردانية المنهجية كمنهج والتي وجدت لها جذوراً في المجال السوسيولوجي، وعليه يمكن القول بأن إرساء براديغم الفردانية على مستوى التحليل السوسيولوجي يرجع بالأساس إلى عالم الاجتماع الفرنسي **ريمون بودون Raymond Boudon**، الذي يُعتبر أول مؤسسي ما عُرف في السوسيولوجيا الفرنسية بتيّار الفردانية المنهجية **L'individualisme méthodologique**، فالفرد ضمن هذا التوجه يُعتَبَر من الأسباب الأساسية في حدوث الظواهر الاجتماعية ومن ثمَّةَ في التغير الاجتماعي[5].

ولا يُمكننا أن نتحدث عن الفردانية الغربية دون أن نُحيل القول لما يصف الفردانية في ظل الإسلام، إذ بعد أن كان الفرد العربي الجاهلي رهين قبيلته، أصبح للإنسان في ظل الدِّين الحنيف وُجوده الخاص والمستقل، له حقوق وعليه واجبات، فللإنسان حريته التي يُسأَلُ عنها، ولكنها في ظل مفهومها الاجتماعي حرية تُقيدُها المؤسسات الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد ويُولّي إتجاهها ولاءً وانحناءً، ما مَهَّدَ للسلطوية داخل هذه المجتمعات بما فيها الأسرة، هذه السلطة التي زادت

بازدياد ولاء الأفراد إليها، ما جعل الفرد في ظل الحداثة يصطدم بأغلالها كما اِصطدم من قبل بأغلال العبودية التي نجمت عن الانقياد الأعمى.

وعليه ما بين الولاء الأصم والتحرر المزيف، لابد للفرد أن يجد له وجودا يضمن له توازن بقاء الذات بما تحمله من حقوق والعيش في ظل الحضانة الأسرية التي تلقي على عاتقه واجبات الطاعة، وحتى تستقل الفردانية بمفهوم عقلاني لابد وأن تتحدد قيمة الفرد في ظل الجماعة التي ينتمي إليها بما تمنحه له هذه الجماعة من اِمتيازات تُعزز في الفرد قيم التميز وتضمن له حرية اِتخاذ القرار وإبداء الرأي وتتوجَّهُ إليه بالتشجيع الذي يُمَكّنُهُ من بناء هذه الذات بناءً سليما لا يسلُب حقوقه، ولكن كذلك لا يدفعه إلى التهور والخروج عن هذه الحضانة، وعليه لا يشعر الإنسان بالاغتراب في حضن أسرته.

## 5. خصائص الفردانية:

من أهم خصائص الفردانية التي يمكن على أساسها قياس درجة التفرد لكل شخص ما يلي[6]:

**– المَيل للاستقلالية في اِتخاذ القرار:** يُشير الميل إلى الاستقلال في اِتخاذ القرار إلى الانفكاك من سلطات العائلة والمجتمع والدولة وهي قدرة الفرد الذاتية على وضع القرارات بنفسه دون تدخل أي أحد أو طرف في صناعة هذا القرار سواء كانت العائلة أو المجتمع أو غيره، كما ينطوي هذا المفهوم على الحرية في اِختيار المواقف والقناعات الشخصية، وبواسطتها يكون الفرد حُرًّا في التعبير إزاء الإكراهات المجتمعية والسلطوية من خلال حرية الرأي والتفكير.

**– التَمرّد على السّلطات التقليدية الرّسمية وغير الرّسمية:** يُشير مفهوم التمرد بالخروج من سلطة الجماعة وقِيَمِهَا وقوانينها وينبع هذا الإحساس نتيجة الشعور بالظلم الذي ينطوي على القهر والانصياع للنظم والقوانين التي تحكم الإنسان وتحول دون ممارساته لرغباته وأفكاره وتطلعاته .

**– الطُموح الفَردي:** ويكون مُرتبطا بذات الإنسان الذي يرسم لنفسه طريقا يسعى إلى تحقيقه مُتجاوزا فكرة المستحيل، أو هو هدف يضعه الإنسان ويسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل الممكنة، فضلاً على أنه مرتبط بامتلاك الحافز لبلوغ الغاية وهو بمثابة قوة داخلية اِيجابية تُنَمي القدرة لدى الفرد على بذل مجهود إضافي كبير لكي يحقق ما يريد.

**– الاعتقاد بمَركزية الفَرد:** هي بمثابة فلسفة فردية تدعم التطور الذاتي وتُشير إلى وضع أهمية مميزة للفرد وفقا لمكانته وطاقاته الإبداعية وبكونه الأصل لمختلف الظواهر الاجتماعية والنفسية والثقافية مع إعطاء الأهمية المركزية لقدراته وجعله محور الاهتمام لكل ما يدور من حوله، كما تُشير على إعطاء الفرد الأولوية على حساب كل ما هو سائد والاعتراف بالأثر الحاسم في قدرة الفرد على تشكيل عوالمه الذاتية وتقرير مصيره الشخصي.

– **المُطالبَة بالحُرّيات الفَرديّة:** هي رغبة الفرد في الحصول على الاستقلالية في الآراء والأفكار والقرارات بدون ضَغط خارجي متمثل في المجتمع والدولة، أو ضغط داخلي كالعائلة أو الطائفة أو الجماعة، أو دون التقيد بالقوانين والقرارات التي تحد من إمكانياته وطاقاته الفعلية، وتنطوي على حرية إبداء الرأي واختيار العمل ومكان العيش وما شابه ذلك، فضلا على أنها تشمل الحرية في الفكر والقرار دون التبعية لإرادة الآخرين.

– **المَيل للعُزلة:** يشير هذا المفهوم إلى عدم التواصل مع الآخرين والانعزال عنهم، ويكون الميل للعزلة هو أحد خصائص الفردانية فهي طريقة يختارها الفرد إراديا ووفق قرار ذاتي، فالرجل الفردي يُعنَى بالتعبير عن رغباته تعبيرا لا حدود له ويستشعر دائما أنه في عزلة عن سائر الناس.

– **اِختيار طَريقة الحَياة:** هي الطريقة التي يختارها الفرد بنفسه للعيش وفق قناعاته الذاتية بعيدا عن تدخل الآخرين، كما تشمل هذه الطريقة حرية التصرف وإبداء الرأي وحرية الاختيار.

– **حُرّية المُعتقد الفِكري:** تنطوي على عدم الخضوع أو الانصياع لأي سلطة سواء كانت العائلة أو القبيلة أو المجتمع وعدم الخضوع للتسلط اللاعقلاني الذي يتعارض مع أفكار وقناعات واِتجاهات الفرد الذاتية، وإعطاء أهمية مركزية لمعتقدات الفرد الفكرية وخصوصياته.

– **حُريّة المَلبس والمظهر الّذي يَرغب فيه الفَرد:** والتي تعتبر حقا من حقوق الفرد الشخصية.

– **العَلاقات العَابرة المحليّة:** وهي رغبة الفرد في تكوين علاقات مع الآخرين أو اِختيار الأفراد وتكوين صداقات وعلاقات معهم دون الرجوع إلى سلطة العائلة أو أي سلطة كانت.

– **عَدم المُبالاة بالانتقادات العامة التي تخص حريته الفردية المكفولة قانونا:** أي لا يُعير أهمية لكلام الناس ولا يسعى لإرضائهم، فكل اِهتمامه منصب على ذاته.

– **الخُروج من رقَابة وسطوة الجماَعة** : ويشير إلى التحرر من اِلتزامات الجماعة فيكون الفرد بذلك مسؤولا على نفسه وعن قراراته وغير خاضع لأنظمة الجماعة وسطوتها والتي تَحُدّ من استقلاله الذاتي.

– **حُريّة اِختيار الشريك:** دون إجبار من العائلة أو التقيد بسلطة الأب أو غيره.

### 6. الفردانية في مجتمعاتنا العربية:

اِنطلاقا من مبدأ دينامية الظواهر الاجتماعية تتجلى الروابط التاريخية التي تشكل حلقة النشوء والتطور، ما يدعو إلى التساؤل حول ما إذا كانت الفردانية المستفحلة في المجتمعات الغربية هي ذاتها الفردانية التي

بدأت تلقي بظلالها على المجتمعات العربية، وبالعودة إلى قوانين النسبية التي تحكم الظواهر الاجتماعية تأسيسا على خلفية خصوصية المجتمعات، هي الخصوصية التي تعكس طبيعة الفرد وتطلعاته، وأثر التنشئة العربية على شخصية الفرد في ظل حضانتها له. بالمقابل إذا إستذكرنا مؤشرات الفردانية سنجد أنها قد توغلت ضمن جينات الحضانة الأبوية وباتت تتمكن من أواصرها، وهو نفاذ يصعب علينا التحكم فيه أو ضبطه أمام الزّحف العولمي، حيث باتت الفردانية اليوم شعاراً يُؤَصِّلُ للحداثة ويُؤذِن باندثار العديد من المفاهيم التقليدية، ويَدعم فكرة تَنَصُّل الفرد عن المجتمعات التقليدية في ظل التمركز حول جوهر الفردية التي تسعى اليوم نحو فهم الذات وبنائها بعيداً عن الكيانات الاجتماعية، وهي الفكرة التي بات ينادى بها أنصار التيار الحداثي وما بعد الحداثي، لاسيما وأن أهداف التربية جميعها في ظل هذا التيار تشير إلى دفع الإنسان نحو بناء فهمه الخاص عن العالم وخلق الذات التي يمكنها العيش مع الآخر في القرية الكونية، ما سيدفع بالأفراد حتما إلى تبني سلوكات قد تُعَبِّرُ عن التَنَصُّل والابتعاد شيئا فشيئا عن النظام التقليدي الذي عرفته الأسرة العربية ودعمته ضمن حضانتها لأفرادها، كل هذا سيدفع بالسوسيولوجيا الحديثة إلى تدارس دينامية الظاهرة والحدود الفاصلة بين فردانية الفرد وديمقراطية أو سلطوية الحضانة الأسرية، هذا ولابد وأن نشير ضمن هذا المسار أن الدول العربية لازالت على مشارف الحداثة، إذ لا يمكننا التحدث بعد عن معطيات ما بعد الحداثة.

إنطلاقا مما سبق سنجد للفردانية مدارات ثلاث تتمحور ضمنها إستعمالاتها هي كالآتي[7]:

– أولاً، تشير الفردانية نسبيًا إلى السعي وراء المصلحة الخاصة أو الانبساط الشخصي من غير تكليف النفس ضرورة الاهتمام بالآخرين.

– ثانيًا، وهو المعنى الأكثر إيجابية للفردانية إلى جملة الممارسات والاستخدامات أو المؤسسات التي تيسّر وجود البشر باعتبارهم أفرادًا بشكل يجعل الفردانية مقترنة بفكرة الاستقلالية الشخصية والتقدم والحداثة، أي إنّها تُرقّي نموذجًا معينًا للفرد الجمهوري.

– ثالثًا، ترتبط الفردانية بتصوّر للفرد كان قد صِيغ خلال تاريخ الفكر الإنساني ثم راح ينتشر في الغرب الحديث ليمتدّ في ما بعد خارجه، وهو معنى يُحيل إلى طريقة تفكير الأفراد في أنفسهم.

ما يُحيل بالقول ضرورةً إلى أنّ المفهوم الثقافي للفردانية الغربية لا يُعَد المرجع في تحديد المفهوم الاصطلاحي وضبطه، حيث أنه وإن هبَّت رياح التغيير الغربية التي عَبَرَت ضمن منافذ الانفتاح إلا أنه لابد وأن نجد الوسيط الذي يعكس التوازن بين الانفتاح والانقياد نحو فهم الذات وجعلها الأصل وبين الانتساب وإحترام الآخر الذي يُشكل الحضانة التي تنشأ وفق معطياتها وشروطها هذه الذات ، وهذا التوازن لا يُخلَقُ إلا بوجود جَوٍّ ديمقراطي يعكس دَمَقرَطَة السلطة الحاضنة ويحترم هوية الذات.

وحيث كانت لا تكاد تبرز النزعة الفردية في ظل التمثلات الاجتماعية التقليدية إلاّ من خلال ما يُحرزه الفرد من نجاحات شخصية كانت بدورها تُعزى إلى الجماعة، باتت اليوم إنعكاسات المدَنيّة وتقسيم العمل تَطَأ الأوساط الأسرية، حيث أضحت مفاهيم الاختلاف والتميز والذات والكفاءة والحرية ... وغيرها أساساً لكل العلاقات الاجتماعية بما فيها الأسرية.

## 7. الغوص في الذات والتنصل من الحضانة الأسرية:

تميل الكثير من المجتمعات التقليدية إلى تهميش الفرد وتدني منزلته وقيمته إعتبارا للصالح العام للجماعة، ما يُحيل بالفرد الحداثي نحو الشعور بالاغتراب في ثنايا أسرته، ما يؤدي إلى إنهيار التواصل بين هذه الذات المغتربة والأسرة الحاضنة ويمهد إلى تدهور العلاقة بين الذات ومحيطها، وبظهور الفلسفات الوجودية والبراغماتية أصبح الإيمان ينطلق من الذات لينتهي إلى الذات كما ذهب إليه رائد الفلسفة الوجودية **سُورين كيركجارد**، وهنا أخذت الفردانية لدى الجيل المتأثر بخصوصيات الحداثة مفهوم التنصل من قيود الوصاية، حيث يكون الفرد مسؤولا عن خياراته دون إكراه أو إنقياد.

بالعودة إلى الأسرة نجد أنها مؤسسة إجتماعية لها خُصوصيتها العاطفية التي تميزها عن باقي المؤسسات، ولكنّها كذلك مؤسسة سُلطوية تفرض التبعية.

ولأننا في المجتمعات العربية لازلنا نعيش على فتات الحداثة، ما يعني أن العديد من الممارسات قد إجتاحت مجتمعاتنا نتيجة التقليد الأعمى في ظل المدنية المزيفة ما يجعل الأمر أكثر خطورة. فشباب اليوم يبحثون عن الفردية دون فهم للذات، ويسعون إلى تحصيل الحقوق دون إهتمام بالمسؤولية، ويُعَبِّرُون عن أفكار دخيلة لا علاقة لها بالقيم المحلية، بالمقابل نجد أن الأسرة تقف موقف المتفرج المتفتح الذي يرى في قشور الحرية وتقليد الغرب مؤشرا مهماً للعَصرنَة والتقدم، أو موقف المتسلط المغتصب الذي يمنح لنفسه حق إستعباد الذوات التي خُلقَّت في كنفه وينادي بالتبعية الأبوية والانقياد الأعمى لعادات وتقاليد لم يعُد شباب اليوم يفقه كُنهَهَا ولا يُدرك قيمتها الثقافية ولا أصولها الاجتماعية.

بين هاته وتلك لابد وأن نُنوه إلى أن قيمة الفرد ضاعت بين سلطة حاضنة من جهة ومُغالطة الفردانية الغربية من جهة أخرى ما دفع الشباب إلى التهور والتنصل واللامبالاة.

## 8. تجليات الفردانية السلبية (المغالطة في فهم الفردانية):

لأن المجتمعات العربية مجتمعات ذكورية بامتياز تظهر السلطة الأبوية كسلطة تستوجب التبعية وتُطالب بالانقياد، ما يجعل عملية التواصل بين الجيلين صعبة أو مستحيلة، فالأب بوصفه المسؤول والّراعي يمارس هيمنته ويطالب أبناءَه بولاء غير محدود، في حين يُطالب هؤلاء

بالحرية: حرية الرأي والتعبير، حرية الفعل، حرية الاختيار، حرية الانتماء.. فنجدهم يَفِرُّون بل ويرفضون هذه الشمولية التي يرعاهم الآباء من خلالها، ما يُمَهد للصدام الحاد بينهما.

ثم إن التساؤل المطروح يتمحور حول طبيعة الفرد داخل أسرته إن كان كائنا اِجتماعيا أم فاعلا اِجتماعيا، ولأن الفردانية اليوم واقعية في مجتمعاتنا العربية – وإن كانت تظهر صريحة أحيانا ومُحتَشَمة أخرى – إلا أن هذا لا ينفي وجودها، وعليه بات لزاما إيجاد الحد الذي يضمن التوازن بين الموجود والمطلوب.

هذا وتظهر الفردانية السلبية من خلال ميل الأفراد إلى العزلة، حيث أضحى أنيسهم الوحيد مواقع التواصل الاجتماعي التي يعيشون عبرها حياة افتراضية تتواءم ومُخَيلة الفرد بعيدا عن واقعه الأسري الحاضن، فنجد أفرادا يجمعهم النسب الواحد والبيت الواحد ولكن تختلف أفكارهم وهوياتهم وفقا لانتماءاتهم وسط الزخم القيمي والموروثات الثقافية المختلفة التي استوطنوها عبر هذه الوسائط.

من النقاط الأخرى التي تستوجب الدراسة والتي أشارت إليها العديد من الأبحاث في مجال علم اِجتماع الأسرة: وجبات الطعام الجماعية التي اِنتقلت من وصفها فِعلا جماعيا إلى كونها فعلا فردانياً، حيث أصبح العديد من الأفراد المعاصرين لاسيما جيل الشباب منهم يميلون إلى تناول طعامهم بصفة منفردة، إما لتحاشيهم الجلوس إلى أسرهم أو لأن الأوقات التي يتناولون فيها وجباتهم لا تتلاءم مع أوقات تناول الأسرة لوجباتها أو لأن الأم أو الزوجة تعمل ما يضطر الزوج والأطفال إلى تناول وجباتهم متفرقين، هذا الذي يُعزز فكرة التفرد والفردانية حيث بات الأفراد يجدون لذة في تناول الطعام منفردين خصوصا أولئك الذين يفرون من المحادثات أو الملاحظات التي تتم على مستوى هذه الوجبات و التي تعكس السلطة الأبوية.

هذا وتتعدد تصورات الحريات الفردية لدى الأفراد بعيدا عن الوصاية ومتطلبات الهوية المحلية، معتقدين أن شِباك الأسرة تمنعهم من ممارسة الحياة، في فهم غير مسؤول للحرية، بعيدا عن المفهوم الصادق والسليم للفردانية.

وفي خضم هذا الزّخم يتوجب على أسرة اليوم أن تحيط أبناءها بنوع من الانفتاح المشروع والمسؤول الذي يُمَكِّنُ الفرد من فهم الذات فهماً سليماً ويعمل على بناء الوعي بضرورة إيجاد الجسر الذي يُؤسس وَصل الفرد بما يحمله اليوم من متطلبات بالأسرة على اِعتبار أنّها الأصل الذي ينبت منه وجود الفرد ويرتكز عليه، وأمام التحولات العصرية والتطورات التكنولوجية التي من مزاياها ظهور الهاتف النقال وتعدد الاشتراكات الهاتفية للفرد الواحد كمظهر للخصوصية في مقابل تراجع اِستعمال الهاتف الثابت كوسيلة تواصل جماعية، الميل إلى مشاهدة برامج تلفاز خاصة بكل فرد أمام تراجع الاجتماع حول برامج عائلية موحدة، الانتماء إلى مواقع

تواصل اجتماعي تدعم وتُشَرّع الخصوصية، اِلتزام الصمت والانعزال مقابل التحاور والمشاركة، الميل إلى اِعتماد الرسائل النصية في السؤال عن الأهل والأقارب مقابل تراجع الزيارات العائلية، العيش ضمن الأسرة أمام الجهل التام بما يحدث في أحضانها من مواقف، وتظهر خطورة الظاهرة إذا عدنا إلى الأساس الذي نادت به أغلب النظريات الاجتماعية من أن الإنسان اِجتماعي بطبعه، هذه الاجتماعية التي تدعم سلامة الفرد النفسية والصحية، ما يدعونا أن نُشير بالبنان إلى ما أضحت عليه وظيفة الأسرة اليوم أمام ما ينافسها من فضاءات الترفية والتواصل وجماعات الأقران ...

ولأن الأسرة هي الحلقة الأولى والدائمة من حلقات التنشئة الاجتماعية، وأول جماعة اِجتماعية يرتبط بها الفرد بل ويوثق رباطه بها إلى الفناء، ولأنها المؤسسة الوحيدة التي تشمل الطفل بالرعاية العاطفية، فهي العصب الذي يَشُدُّ الجَمْعَ إلى أساسه المتين، لابد إذاً أن تأخذ الأسرة اليوم بعين من التفهم والرضا ما يعيشه الجيل الصاعد من تغيرات وسط وَفرة التكنولوجيات التي لا تعكس إلا طبيعة العالم الجديد، دعماً منها لوظائفها وشَدًّا على أَزْرِ أعضائها، ودَفْعًا لثورة أبنائها، كُلٌّ في مقامه المنطقي المعقول، فلا تفتح يَشيع في ظلاله اِنفلات عن الهوية، ولا تَسَلّط يُبيح الاستعباد ويَكبِت الحرية، فليس هناك أفضل من الوسَطية والاعتدال من أجل خلق فرصة للأبناء تُمكنهم من فهم الذات وإثبات الوجود في كنف الحضانة الأسرية.

## 9. خاتمة:

إنّ الحديث عن الفردانية الايجابية هو حديث عن الحق في فهم الذات وتعزيز وُجودها وحقها في تقرير مصيرها، ولكنَّ الصعوبة تكمن في رسم سليم للحدود الفاصلة بين ممارسة الفرد لحرياته الخاصة، ومتى تتعدى هذه الحريات حدود الوظائف الشرعية للحضانة، فالتفاوت القائم بين حقل ممارسة الحرية الفردية وحقول التنشئة الأسرية قد يضر بكيان الفرد والأسرة معا، ويضع الفرد أمام صراع نفسي واجتماعي بين تحقيق الذات واِحترام النِّسبة للجماعة الحاضنة.

ثم لابد من التوجه بالبحث حول المفهوم الذي تأخذه الفردانية لدى الشباب، هل هي الفردانية بمعالمها الصادقة التي تعكس اِكتساب الحق المشروع، أم أنها اِنعكاس موروث عن المفهوم الذي اِتخذته الفردانية لدى المجتمعات الغربية يؤمه التقليد الأعمى، فالفردانية المشروعة هي الحق المتمركز حول الذات الحداثية بما تحمله من اندفاع نحو التجديد والتحرر والمبادرة، ما يدعو إلى ضرورة التعايش بين مجتمع الجيل الأول، جيل الآباء الذي يمثل السلطة التقليدية، ومجتمع الجيل الثاني الذي يشكل قاعدة التحول.

ولأن الفردانية تَمَثُّلٌ قَيمي لكل مجتمع حديث لا بد وأن نشير إلى أنّها قيمة بات يحملها كل فرد ويدافع عنها لا بوصفها حقا سياسيا واِجتماعيا فحسب، بل

بوصفها حقّ طبيعي يعكس ما يجب أن يكون عليه الفرد اليوم.

## 10. قائمة المصادر والمراجع:

[1]- إبن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، المجلد الثالث، مادة "فرد".

[2]- حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، مصر، 2004.

[3]- عامر ناصر شطارة، الفردانية في الفلسفة الحديثة – كيركيجارد نموذجا –، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية و الاجتماعية، المجلد41،الملحق2014،1.

[4]- لويس دومون، مقالات في الفردانية – منظور أنثربولوجي للأيديولوجية الحديثة –، ترجمة بدر الدين عردوكي، المنظمة العربيةللترجمة،ط1،بيروت،لبنان،2006.

[5]- عبد الصبور لكرمات، المنهجية الفردانية في سوسيولوجيا ريمون بودون، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، مركز جيل البحث العلمي، العام السادس، العدد 51، مارس 2019.

[6]- علاء جواد كاظم و إيناس رزاق مطيع، الفردانية ومستقبل الجماعات التقليدية – دراسة أنثربولوجية ميدانية في مدينة الديوانية –، ورقة بحثية مقبولة للنشر بمجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العدد 55، 2017.

[7]- عادل بلحاج رحومة، في تشكل الفرد والفردانية في المجتمع التونسي، مجلة عمران، العدد 2/7، ربيع 2014.